البوتقة بفعل النّار الّتى أوقدت عليه وهو فى البوتقة بقصد الحصول على الحلية من الذّهب والفضّة وما إليهما، وعلى المتاع من النّحاس والحديد وما إليهما، احتمل المعدن زبداً رابياً طافياً. ومن المعروف أنّ المعدن بمنزلة الماء فهو جوهر. إنّ الماء والمعدن رمزٌ للحقّ والخير والإيمان، وإنّ الزّبد رمزٌ للباطل والشّرّ والكفر، وإنّ العلاقة بين الجانبين علاقة صراع دائم. وإنّ طفو الزّبد معناه أنّ الباطل قد يطفو كالجيفة وكالزّبد وقتاً من الأوقات ولكنّ عاقبة الزّبد أن يذهب جفاءً ويمضي هباءً أمّا ما ينفع النّاس فإنّه يمكث فى الأرض. وهذا الّذى ينفع النّاس يرمز له فى مجال المحسوسات بالماء والمعدن، وفى مجال المعنويّات بالحقّ والباطل. إنّ العاقبة للمتّقين وللحقّ أن يدمغ الباطل فإذا هو زاهق ولدين الإسلام أن ينتصر وينتشر وأن يظهر على الدّين كلّه ﴿ولو كره المشركون﴾[1] : ﴿وكفى بالله شهيدا﴾[2] إنّ فى مثل هذه الطّريقة يضرب الله تعالى الأمثال الّتى لا يعقلها إلا العالِمون.

(للّذين استجابوا لربّهم الجنّة وللّذين لم يستجيبوا النّار)
الآيات (١٨ ـ ٢٥)

يقرّر السّياق أنّ للّذين استجابوا لربّهم جلّ وعلا بإفراده جلّ وعلا بالعبادة الجنّة، وللّذين لم يستجيبوا له جلّ وعلا النّار وبئس المهاد ولا يقبل منهم فداء ولو كان معهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لأن مبدأ الفداء مرفوض ومن ثمّ كان حساب القوم عسيراً. ومن البيّن التّقابل فى الصّفات بين الفريقين هذا إلى التّقابل بينهما فى نور البصيرة وعماها. إنّ المؤمنين أولى العقول الرّاجحة يعلمون أنّ ما أنزل الله تعالى إلى رسوله هو الحقّ أمّا الكافرون فإنّهم عطّلوا عقولهم ومن أجل ذلك اختلف الفريقان فى الصّفات وفى العاقبة. إنّ من نعوت أولى الألباب أنّهم يوفون بعهد الله تعالى وفى مقدمة تلك العهود العهد الّذى أخذه الله تعالى عليهم وهم فى عالم الذّرّ بإفراده جلّ وعلا بالعبادة هذا إلى كونهم لا ينقضون الميثاق والعهد المؤكّد بيمين وما أشبهها. ومن نعوتهم أنّهم يصلون ما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل من برّ والدين وأقارب وصلة رحم وما إلى ذلك، ويخشون ربّهم جلّ وعلا فيتصرّفون فى ضوء خوفهم من ربّهم جلّ وعلا وحبّهم له، ويخافون سوء الحساب يوم القيامة . وإذا كانت النعوت السّابقة جاءت فى صيغة

---

(١) سورة التّوبة ٣٣ وسورة الصّفّ ٩ .

(٢) سورة الفتح ٢٨ .

الزّمن المضارع فإنّ ثلاثةً من النّعوت جاءت فى صيغة الزّمن الماضي تنبيهاً إلى أنّها يجمع بينها كونها وسائل غالية لغايات سامية. إنّهم صبروا ابتغاء وجه ربّهم جلّ وعلا وأقاموا الصّلاة وأنفقوا ممّا رزقهم الله تعالى سرّاً وعلانيةً. ثمّ عاد السّياق إلى استعمال الزّمن المضارع الدّالّ على الاستمرار والتّجدد: ﴿ويدرءون بالحسنة السّيّئة﴾ إنّ لأولى الألباب حسن عاقبة هذه الدّار الأولى والحياة الدّنيا. إنّها جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم كي يرتفع بفضل الله تعالى أولئك الصّالحون إلى مرتبة أولى الألباب دون أن ينقص شيءٌ من ثواب أولى الألباب. والملائكة الأطهار يدخلون عليهم جميعاً من كلّ بابٍ قائلين: سلامٌ عليكم وأمنٌ وطمأنينةٌ بما صبرتم فنعم الجنّة عقبى الدّار الأولى. وفى مقابل أولى الألباب الّذين استجابوا لربّهم جلّ وعلا هنالك الّذين لم يستجيبوا لربّهم جلّ وعلا وهؤلاء ينقضون عهد الله تعالى من بعد ميثاقه وتوكيده ويقطعون ما أمر الله تعالى به أن يوصل فى هيئة البرّ وصلة الرّحم وما إليهما ويفسدون فى الأرض من بعد إصلاحها. إنّ أولئك لهم اللّعنة والطّرد من رحمة الله تعالى ولهم سوء عاقبة الدّار الأولى وهي جهنّم وبئس المهاد.

(الّذين كفروا يفرحون فرح بطر. والّذين آمنوا تطمئن قلوبهم بذكر الله تعالى)

الآيات (٢٦ ـ ٢٩)

تحدّثت آيات القسم السّابق عن بعض صفات الّذين استجابوا لربّهم جلّ وعلا وجزائهم وعن الّذين لم يستجيبوا لربّهم جلّ وعلا. وآيات هذا القسم التّالى تواصل الحديث عن بعض صفات الفريقين وجزائهم. إنّ ربّ العزّة إذا كان هو الّذى يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويضيّق سواءٌ كانوا مؤمنين أو كافرين فإنّ الكافرين يفرحون بالحياة الدّنيا فرح أشرٍ وبطرٍ لأنّهم يعتبرونها غاية المنى ويظنّون أنّ ما نالته أيديهم تمّ باجتهادهم! لقد غفل الكافرون عن حقيقة الحياة الدّنيا ذات المتاع القليل وعن النّعيم المقيم فى الجنّة فآثروا العاجلة الفانية الّتى تفضى إلى النّار وبئس القرار. ويصرّ الكافرون على عنادهم فيطلبون من المصطفى ﷺ آيةً ماديّة ويصرّون على الإعراض عن القرآن الكريم فيزيدهم الله تعالى ضلالاً وذلك فى مقابل زيادة المؤمنين هدىً. وأولئك المؤمنون تطمئنّ قلوبهم بذكر الله تعالى الّذى تطمئنّ بذكره القلوب الحقيقة بهذا الاسم وذلك فى مقابل الحياة السّيّئة القلقة الّتى يعيشها الكافرون. وأولئك المؤمنون مصيرهم الجنّة وحسن المآب وذلك فى مقابل النّار مصير الكافرين وسوء المآب.

(تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ والمؤمنين).
الآيات (٢٠ ـ ٣٢)

تدور آيات القسم حول تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ والمؤمنين فتقرّر أولى الآيات الكريمات أنّ ربّ العزّة كما أرسل المرسلين السّابقين فى أممهم الماضية أرسل محمّداً ﷺ إلى أمّته ليتلو عليهم القرآن الكريم الّذى أوحاه الله تعالى الرّحمن الرّحيم إليه. والعجيب فى كفّار مكّة أنّهم يكفرون بالرّحمن ويزعمون عدم معرفة لفظ الرّحمن وأنّه عليه الصّلاة والسّلام حينما يدعو الرّحمن يدعو إلها آخر مع الله تعالى. إنّه عليه الصّلاة والسّلام يؤمر بأن يقول للقوم إنّ الرّحمن هو ربى الّذى لا اله إلاّ هو عليه توكلت وإليه توبتى. وتجاه طلب الكافرين من المصطفى ﷺ آياتٍ محسوسة غير القرآن الكريم على نحو ما أشارت إلى ذلك مثلا سورة الإسراء وسورة الفرقان مما يقلّ عن القرآن الكريم فى مجال الهداية، الوظيفة الأولى للمعجزة أو الآية فى حقّ أمّة البيان، تقرّر الآية الكريمة أنّ العادة لم تجر بأيّ كتابٍ سماويّ أن تسيّربه الجبال أو تقطّع به الأرض أو يُكلّم به الموتى. إنّ شيئاً كهذا لو قام به كتابٌ سماويّ لكان ذلك الكتاب هو القرآن الكريم. ويضرب السّياق عن تعنّت الكافرين ويقرّر أنّ الأمر كلّه لله تعالى فهو جلّ وعلا الّذى يعلم الآية النّافعة فى حقّ كلّ أمّة. والعجيب فى أمر كفّار مكّة أنّهم لا يستفيدون من القوارع الّتى تحلّ بهم أو تحلّ قريباً من دارهم دليلاً على أنّ الفتح المبين الّذى وعد الله تعالى به عبده ﷺ آتٍ لا محالة. إنّهم يظنّون الإمهال إهمالاً. ومن أسلحة الكافرين الّتى استعملها كفّار مكّة أسوةً بالكافرين السّابقين سلاح الاستهزاء وقد كفى الله تعالى حبيبه ﷺ المستهزئين. وكما أخذ الله تعالى المستهزئين السّابقين بالعذاب الأليم سيأخذ كفّار مكّة إنّ لم يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا الصّالحات.

(عاقبة الّذين اتّقوا الجنّة وعاقبة الّذين كفروا النّار)
(الآيات (٣٣ ـ ٣٥)

أصرّ الكافرون المستهزئون على إشراكهم مع الله تعالى فى العبادة سواه وإنّ السّياق ليطرح سؤالاً يستغنى عن جوابه لأنّه معروف. وهذا السّؤال هو: أفمن هو قائمٌ وحفيظٌ على كلّ نفس بما كسبت وعملت كمن ليس قائماً على شيء؟ إنّهما لا يستويان. ويصحّ أن يقال إنّ السّياق كما استغنى عن الجواب استغنى عن الشّقّ الثانى من السّؤال على نحو

ما تبيّن. وجعلوا لله تعالى شركاء قل سمّوهم كي تتبيّنوا أنّها أسماء لا مسمّيات تحتها. أمّ أنّ المشركين يريدون أن ينبّئوا الله تعالى العليم علّام الغيوب ويخبروه بما لا يعلم فى الأرض وهو جلّ وعلا الّذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء، أم يريدون أن ينبّئوه جلّ وعلا، فى حقّ الآلهة المزعومة، بظاهرٍ من القول لا معنى تحته ولا فائدة من ورائه. بل زيّن الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء للّذين كفروا مكرهم وكيدهم وصُدُّوا عن سبيل الهدى كما صَدُّوا غيرهم وزادهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم فلا هادى لهم. وهؤلاء إنّ لم يؤمنوا لهم عذابٌ شديدٌ فى الحياة الدّنيا ولعذاب الآخرة أشدّ وأشقّ وليس لهم من دون الله تعالى من واقٍ ولا مانع. وفى مقابل النّار الّتى هي عاقبة الّذين كفروا ثمّة الجنّة الّتى هي عاقبة الّذين اتّقوا. ومن صفات تلك الجنّة أنّ أنهارها متدفقة باستمرار، وما يؤكل منها موجودٌ دائما، وظلّها ممدودٌ أبداً.

﴿إصرار الكافرين عن اعراض عن القرآن الكريم وسائر الآيات﴾
الآيـات (٣٦ ـ ٤٣)

يقرّر السّياق أنّ الّذين آتاهم الله تعالى التّوراة والإنجيل ونوّر الله تعالى بصائرهم يفرحون بما أنزل الله تعالى على حبيبه المصطفى ﷺ من قرآنٍ كريم، أمّا الّذين تحزّبوا على الكفر من أبناء الملل المختلفة فإنّهم ينكرون بعض القرآن الكريم. ولمّا كان القرآن الكريم كلاًّ لا يقبل التّجزئة وغايته هداية النّاس إلى إفراد الله تعالى بالعبادة فإنّ المصطفى ﷺ يؤمر بأن يقول بأنّه إنّما أُمِر بأن يعبد الله تعالى ولا يشرك به أحداً سواه ويدعو إلى الله تعالى الّذى إليه المرجع والمآب. وهذا القرآن الكريم أنزله الله تعالى حكماً عربيّاً. إنّه يُحْكَم به ويُقْضَى لأنّ الأحكام زُبْدة الحكمة، وإنّه عين الحكمة، هذا إلى إحكام نسجه. ويُنْهَى عليه الصّلاة عن اتّباع أهواء المكذّبين من بعد ما جاءه عليه السّلام من العلم فى هيئة الإيحاء بالقرآن الكريم وبالسّنّة المطهّرة فإنّ الله تعالى وحده لا شريك له هو وليّ المصطفى ﷺ وناصره والمدافع عنه. وقد أرسل الله تعالى الرّسل السّابقين وجعل لهم أزواجاً وذرّيّة وخصّهم بمعجزاتٍ معيّنة لا يد لهم فيها فليس

محمّد ﷺ فى ذلك بدعاً من الرّسل. والله تعالى جعل لكلّ أجلٍ كتاباً مكتوباً فيه مدّته. والله تعالى يمحو ما يشاء محوه ويثبت ما يشاء إثباته وعنده أمّ الكتاب وأصله واللّوح المحفوظ. وبشأن المكذّبين إمّا أن يُرِيَ الله تعالى حبيبه المصطفى ﷺ عذابهم وإمّا أن يتوفّاه الله تعالى قبل ذلك وليس على المصطفى ﷺ إلاّ البلاغ وحده أمّا الحساب فعلى الله تعالى. والعجيب فى كفّار مكّة ومن شاكلهم أنّهم لا يستفيدون ممّا يرونه بأعينهم من انتقاص أرضهم بواسطة الإسلام والمسلمين. إنّ الله سبحانه وتعالى قد حكم بذلك ولا معقّب لحكمه وهو جلّ وعلا سريع الحساب. وبشأن مكر الكافرين فى كلّ عصرٍ ومصر قد جعله الله تعالى يرتدّ على الماكرين ويحيق بأهله الّذين قد أحاط الله تعالى علماً بما كسبوا وبما كسب غيرهم وسيعلم الكفّار يوم القيامة أنّ العاقبة الحسنة وهي الجنّة للمؤمنين المتّقين. وحينما يصرّ الكافرون على الزّعم بأنّ محمّداً ﷺ ليس رسول ربّ العالمين على المصطفى ﷺ أن يقول: حسبيَ الله تعالى شهيداً أنّى رسول ربّ العالمين وحسبي مؤمنو أهل الكتاب شهداء على ذلك.

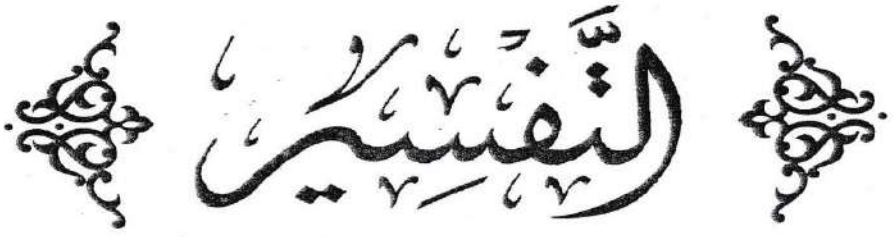
التفسير

((على الناس أن يؤمنوا بآيات الكتاب العزيز وبآيات الله تعالى في السماوات والأرض))
الآيـات (١ ــ ٧)

الٓمٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾

تبدأ الآية الكريمة بالحروف المقطّعة : ﴿المر﴾ وسورة الرّعد وحدها هي الّتي تبدأ بـ﴿المر﴾ وسبق أن بيّنّا فى تفسيرنا للآية الكريمة الأولى من سورة البقرة : ﴿الم﴾ أنّ من العلماء من قال بشأن حروف أوائل السّور : الله أعلم بمراده بذلك. ومنهم من حاول أن يتبيّن معناها. ومن ألطف الآراء الرّأي الّذى يذهب إلى أنّ هذه الحروف المقطّعة امتدادٌ للتّحدّى بالقرآن الكريم، وكأنّ فيها إيماءً إلى أنّ هذه الحروف الّتى تتألّف منها كلمات القرآن الكريم هي ذات الحروف الّتى يتألّف منها كلامكم أيّها العرب. ولكنّ القرآن الكريم نسيج وحده. وممّا لوحظ بشأن السّور الّتى تبدأ بهذه الحروف أنّها يأتى فيها الانتصار للقرآن الكريم على الفور أو على التّراخى. وإنّ الانتصار للقرآن الكريم هنا يأتى على الفور. وها هي ذى آيات الكتاب العزيز يشار إلى رفيع منزلتها باسم الإشارة الدّالّ على البعد : ﴿تلك آيات الكتاب﴾ وإنّ هذا الكتاب العزيز الّذى أُنزِل على قلب المصطفى ﷺ فى أسمى طرق الوحي من ربّه جلّ وعلا بواسطة جبريل عليه السّلام هو الحقّ. إنّ القرآن الكريم بالحقّ أنزله الله تعالى فالحقّ غايته، وبالحقّ نزل فالحقّ مصاحبه، ولكنّ أكثر النّاس، وفى مقدّمتهم مشركو مكّة، لا يؤمنون.

وينبغى أن يكون للقول خطاباً للمصطفى ﷺ : ﴿من ربّك﴾ كبير الأثر فى تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ فى هذه الفترة المكّيّة المبكّرة من تاريخ الدّعوة. ونعتقد ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ السّورة الكريمة مكّيّة فى مجموعها لأنّها تعالج الموضوعات الّتى يعالجها المكّيّ من القرآن، وهي موضوعات متعلّقةٌ بأسس العقيدة. وكأنّ الآية الكريمة تتضمّن موضوعات السّورة الكريمة. فالقرآن أنزله الله تعالى من السّماء بواسطة ملكٍ كريم هو جبريل عليه السّلام، على المصطفى ﷺ النّبيّ الرّسول الكريم الّذى يعيش فى الأرض ويأكل الطّعام ويمشى فى الأسواق من أجل إخراج النّاس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن هؤلاء من آمن ومن هؤلاء من كفر. إنّ هذه هي أهمّ موضوعات السّورة الكريمة. وإنّ منزلة الكتاب الرّفيعة فى السّماء اقترن بها منزلة الكتاب الرّفيعة فى قلوب المؤمنين فى الأرض. وإنّ الإشارة إلى الّذين لا يؤمنون تعنى الإشارة ضمناً إلى المؤمنين. ولمّا كان نزول القرآن من السّماء إلى الأرض، وكان الحديث عن الّذين لا يؤمنون يعنى

الحديث ضمناً عن الّذين يؤمنون، فكأنّنا بصدد الحديث عن بعض المعانى المتقابلة والصّفات المختلفة كالسّماء والأرض والمؤمنين والكافرين. وكأنّنا بصدد الإيماء إلى أهمّ صفةٍ أسلوبيّة تتجلّى فى سورة الرّعد بأكثر من غيرها من سور القرآن وهي الجمع فى نسق بين الصّفات المتقابلة والمعانى المتضادّة.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى رفع السّماوات بغير عَمَد نراها ومن دون دِعامات نبصرها ولكنّها مرفوعةٌ بقدرة الله تعالى، فلا دِعامات تحتها ولا عِلاقات من فوقها. وبلغة العلم السّماوات وكذلك الأرض معلّقة فى الفضاء بإرادة الله تعالى بفعل الجاذبيّة، وذلك بأن يتساوى شدّ الكواكب الثّابتة أو المتحرّكة وجذبها بواسطة كواكب أخرى، لها هي الأخرى مثل ما عليها. وهكذا تكون الأجرام كلّها معلّقةً فى الفضاء بقدرة الله تعالى. إنّ الله تعالى الّذى رفع السّماوات بغير عَمَدٍ هو المستحقّ لأن يعبد وحده لا شريك له. والله تعالى استوى على العرش بعد رفع السّماوات استواءً يليق بجلاله وعظمته من غير تكييفٍ ولا تشبيهٍ ولا تمثيلٍ ولا تعطيل. وسخّر الشّمس والقمر وهما أظهر الكواكب السّيّارة، والكواكب السّيّارة أشرف من الثّوابت[1] وكلٌّ من الشّمس والقمر يجرى إلى أجلٍ مسمّى بقيام السّاعة[2] ومن البيّن عَلاقة الشّمس الوثيقة بالنّهار وعَلاقة القمر الوثيقة باللّيل. ومع أنّ الشّمس والقمر من متعلّقات السّماوات فإنّ نفعهما وثيق العَلاقة بالأرض. والله سبحانه وتعالى يدبّر كلّ أمر ويفصّل آيات الكتاب العزيز لعلّنا نوقن بلقاء الله تعالى ونعمل من أجل ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٤٩٩ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٤٩٩ وتفسير الطّبري ١٣/٦٢ .

ومن البيّن حديث الآية الكريمة عن السّماوات وعن الشّمس والقمر، وكلّ ذلك منظور، وعن العرش وهو من الغيب، وعن تدبير الأمر وتفصيلِ الآيات البيّنات. إنّ هذه الأمور العميقة الغور بحاجةٍ إلى أن يصل المرء بشأنها إلى مرتبةٍ رفيعةٍ من الإيمان بين يدي الإيقان بالبعث بعد الموت ولقاء الله تعالى من أجل الحساب، الثّواب أو العقاب. لقد أومأ التّذييل إلى هذا الهدف البعيد: ﴿لعلّكم بلقاء ربّكم توقنون﴾.

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ
ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن السّماوات وعن الشّمس والقمر لأنّهما من متعلّقاتها، وتتحدّث هذه الآية الكريمة التّالية عن الأرض وعن بعض متعلّقاتها. وهكذا يتجلّى في السّورة الكريمة الحديث عن المعاني المتقابلة كالسّماء والأرض، علماً بأنّ حديث أولى آيات السّورة الكريمة كان عن نزول القرآن الكريم، فثّمة حديثٌ ضمنيّ عن السّماء الّتي نزل منها القرآن الكريم والأرض الّتي نزل فيها القرآن الكريم على قلب المصطفى ﷺ.

والحديث في الآية الكريمة عن الخطوط العريضة للأرض. فالأرض بإرادة الله تعالى ممتدّة، وقد انتفعت الخلائق بهذا الامتداد. والأرض فيها الجبال الرّواسي، وهي بمثابة الأوتاد الّتي تمسك بالخباء، وبذلك تمنع الجبال الأرض من أن تميد وتهتزّ وتضطرب. وفي الأرض الأنهار وهي أوضح الصّور للماء العذبِ على الأرض بسبب جريان الأنهار الّذي تبصره العين بسهولة. والأنهار رمزٌ لكلّ مصادر المياه العذبة من بحيرات وعيونٍ وآبار. وفي ذكر الأنهار الّتي من سماتها التّدفّق والجري ذكرٌ ضمنيّ للماء المِلْح مصدر الأمطار أهمّ روافد الأنهار. ولمّا كان ماء الأنهار عذباً، وكان النّبات يحيا بإرادة الله تعالى بالماء العذب كان ثمّة ذكرٌ للثّمرات الّتي تتألّف جميعها بإرادة الله تعالى من ذكر وأنثى. وحتّى حينما يوجد صنفٌ واحدٌ منهما فإنّ هذا الصّنف الواحد يشتمل على خصائص النّوعين، الذّكر والأنثى. وكأننا أمام الزّوجين الذّكر والأنثى. كما أنّنا أمام اللّيل والنّهار. والسّياق يجعل اللّيل يغطّي النّهار ويغشاه، ومن ثمّ يَقدّمه في الذّكر وذلك من الأدلّة على أنّ اللّيل أو الظّلام هو الأصل وأنّ النّهار أو النّور طارئٌ عليه.

ولمّا كانت هذه المعانى الجليلة بحاجةٍ إلى الفكر المستنير كي يسبر أبعادها وأغوارها ختمت الآية الكريمة بالتنبيه على الحاجة إلى التّفكّر فى هذه المعانى وعلى قيمة هذا النّوع من التّفكّر : ﴿إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى فعل كل ذلك هو المستحقّ للعبادة وحده لا شريك لـــه.

وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

ونخيلٌ صِنْوانٌ وغير صِنْوان : الصّنوان هو الأصول المجتمعة فى منبتٍ واحدٍ كالرّمّان والتّين وبعض النّخيل ونحو ذلك. وغير الصّنوان ما كان على أصل واحدٍ كسائر الأشجار. ومنه سمّي عمّ الرّجل صنو أبيه. كما جاء في الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ قال لعمر : أما شعرت أنّ عمّ الرّجل صنو أبيه[1] والصّنوان لا يفرّق فيه بين جميعه واثنيه إلّا بالإعراب فى النّون، وذلك أن تكون نونه فى اثنيه مكسورةً بكلّ حال، وفى جميعه متصرّفة فى وجوه الإعراب. ونظيره القِنوان واحدها قِنْو[2].

ونفضّل بعضها على بعضٍ فى الأكل : الأكل بضم الكاف وسكونه : ما يؤكل[3] والأُكل الثّمر. ويقال : أكل بستانك دائم، وأكله ثمره. وفى الصّحاح : والأكل ثمر النّخل والشّجر. وكلّ ما يؤكل فهو أكل. وفى التّنزيل العزيز : ﴿أُكلها دائم﴾[4].

بعد حديث الآية الكريمة السّابقة عن الخطوط الأرضيّة العريضة تتحدّث هذه الآية الكريمة التّالية عن الخطوط الأرضيّة الدّقيقة. وحينما تتحدّث آيةٌ كريمةٌ واحدة فى القِسْم عن السّماوات فى حين تتحدّث آيتان كريمتان اثنتان عن الأرض فلأنّ علاقة

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٠ .

(٢) تفسير الطّبري ١٣/٦٥ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « أكل » ٢٠ .

(٤) لسان العرب : «أكل» .

الإنسان بالأرض علاقة حياةٍ وموتٍ وخروج بعد الموت بإذن الله تعالى. والحقيقة أنّ هذه العناية الكبرى بالأرض تذكّرنا بحظّ الأرض من الأيّام السّتّة الّتي خلق الله سبحانه وتعالى فيها السّماوات والأرض. إنّ حظّ الأرض أربعة أيّام وإنّ حظّ السّماوات يومان اثنان بنصّ القرآن الكريم. جاء في سورة فصّلت قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿قل أئنّكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواءً للسّائلين. ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهنّ سبع سماواتٍ في يومين وأوحى في كلّ سماءٍ أمرها. وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وحفظاً. ذلك تقدير العزيز العليم﴾. لقد خلق الله تعالى الأرض في يومين اثنين. وهيّأها كي يسكنها الإنسان في يومين اثنين تمام أربعة أيّام. ففي القول : ﴿في أربعة أيّام﴾ بلاغة بالحذف والتّقدير في تمام أربعة أيّام . وخلق الله تعالى السّماوات في يومين اثنين تمام ستّة أيّام .

وإنّ آية سورة الرّعد تقرّر أنّ في الأرض بإرادة الله تعالى قطعاً متجاوراتٍ ولكنّها مختلفات : «هذه طيّبة تنبت ما ينفع النّاس وهذه سَبَخَة مالحة لا تنبت شيئاً. هكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضّحّاك وغير واحد. ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض فهذه تربةٌ حمراء وهذه بيضاء وهذه صفراء وهذه سوداء وهذه محجرة وهذه سهلة وهذه مرملة وهذه سميكة وهذه رقيقة. والكلّ متجاورات. فهذه نصفها وهذه نصفها الآخر . فهذا كلّه ممّا يدلّ على الفاعل المختار لا إله إلاّ هو ولا ربّ سواه »[2] .

وكما كان في الأرض قطعٌ متجاوراتٌ مختلفاتٌ كان في الأرض جنّاتٌ وحدائق تجنّ الأرض وتسترها بخضرة أوراق الأعناب والزّرع والنّخيل الصّنوان وغير الصّنوان. والمعروف أنّ حظّ أوراق الأعناب من الخضرة هو الموفور، هذا إلى أنّ الأعناب معروشات، بمعنى أنّها بحاجةٍ إلى العريش الّذي تقوم عليه. ويلي الأعناب في الحظّ من الخضرة الزّروع. ولكنّها تتقدّم الأعناب بأنّها تقوم على سوقها. ويلي الزّروع في الحظّ من الخضرة النّخيل، ولكنّها تتقدّم الزّروع في الارتفاع. وهكذا يتوزّع الارتفاع والخضرة بالعدل بين الأصناف الثّلاثة.

---

(١) سورة فصّلت ٩ـ١٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٠ .

على أنّ صفة التّقابل فى الصّفات الّتى تصبغ السّورة بلونها نتبيّنها فى القول : ﴿صنوانٌ وغير صنوان﴾ فثمة نخلاتٌ يجمعها أصلٌ واحد ونخلات منفردة.

وأمّا قدرة الفعّال لما يريد الّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء فإنّها تتجلّى فى كون كلّ هذه الأنواع من النّبات تُسْقَى بماءٍ واحد!

ومع أنّ الأنواع من النّبات تُسقى بماءٍ واحدٍ فإنّ ثمرها مختلفٌ فى الشّكل واللّون والرّائحة والطّعم. ثمّ إنّ ربّ العزّة فضّل بعضها على بعضٍ فى الأُكُل ومن ثمّ تتفاوت الدّرجات فى إقبال النّاس عليها وتناولهم لها.

ومن البيّن وضوح هذه المعانى وقرب تناولها وسهولة وصول أرباب العقول النّاضجة لمراميها ومن ثمّ ختمت الآية الكريمة بالقول : ﴿ إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ .

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ
جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ
فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

وأولئك الأغلال فى أعناقهم : الأغلال جمع غُل (بالضّمّ) وهو طوقٌ تُشَدّ به اليد إلى العنق[1].

لا يكاد العجب ينتهى من المواقف المتناقضة لكفّار مكّة ومن لفّ لفّهم. إنّهم لا يجهلون أنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس. وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿لخلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ وهب أنّهم من الّذين لا يعلمون ذلك ولكنّهم يعلمون أنّ الله سبحانه وتعالى هو خالق السّماوات والأرض ومن فيهنّ وبيده جلّ وعلا ملكوت كلّ شيء. وفى هذه المعانى جاء قول الحقّ جلّ وعلا[3] : ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله. قل أفلا تذكّرون. قل من ربّ السّماوات وربُّ العرش العظيم. سيقولون لله. قل أفلا

---

(١) تفسير القرطبي ١٣٥٣ .

(٢) سورة غافر ٥٧ .

(٣) سورة المؤمنون ٨٤ ـ ٨٩ .

تتقون. قل من بيده ملكوت كلّ شيءٍ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنّى تُسْحَرون﴾ فإذا قيل لكفّار مكّة ومن شاكلهم إنّكم سوف تبعثون بعد الموت وتحاسبون قالوا متعجّبين منكرين : ﴿أئذا كنّا تراباً أئنّا لفى خلقٍ جديد﴾ أبعد أن نموت ونتحوّل تراباً وعظاماً سوف نبعث من جديد! إنّهم يستبعدون إعادة الخلق من جديد ويعترفون بأنّ الله تعالى هو خالقهم وخالق كلّ شيء. وهل إعادة الخلق شيءٌ آخر غير خلقه ابتداءً! إنّ الخلق وإعادة الخلق سواءٌ فى حقّ الذّات العليّة فالعجب كلّ العجب من كفّار مكّة الّذين يعترفون بالخلق ابتداءً ويستبعدون الخلق عودةً وهم لا يجهلون أنّ إعادة صنع الشيء فى حقّ البشر العاجزين المقهورى الإرادة أسهل من صنعه ابتداءً.

إنّ أولئك هم الّذين كفروا بربّهم جلّ وعلا وبذلك هم عملوا بعكس ما طُلِب منهم أن يعملوا فى الآيات الكريمات السّابقات بأن يؤمنوا ويوقنوا بلقاء ربّهم جلّ وعلا ويتفكّروا فى خلق السّماوات والأرض ويستعملوا عقولهم استعمالا صحيحاً.

وإنّ أولئك ستكون الأغلال فى أعناقهم وأيديهم والسّلاسل فى أرجلهم يساقون إلى الجحيم والعياذ بالله. إنّ الغلّ قيدٌ يشدّ بطبعه اليدين إلى الأعناق. وإنّ فى ذكر الأيدى ذكراً ضمنيّاً للأرجل. وقد جاء فى حقّ هؤلاء المجادلين بالباطل قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة غافر[1] : ﴿ألم تر إلى الّذين يجادلون فى آيات الله أنّى يُصْرَفون. الّذين كذّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون. إذ الأغلالُ فى أعناقهم والسّلاسلُ يُسْحَبون. فى الحميم ثمّ فى النّار يُسْجَرون﴾.

وإنّ أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون. وإنّما كان من نصيبهم الأغلال والخلود فى النّار لأنّهم لم يتفكّروا ولم يستعلموا عقولهم استعمالاً صحيحاً وبذلك هم عملوا بعكس الأمر بالتّفكّر واستعمال العقل فكفروا بدل أن يؤمنوا وأنكروا بدل أن يوقنوا بلقاء الله تعالى.

---

(١) الآيات ٦٩ ـ ٧٢.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

وقد خلت من قبلهم المثلات : الخلوّ يُسْتَعْمَلُ فى الزّمان والمكان لكن لمّا تصوِّر فى الزّمان المضيّ فسّر أهل اللّغة خلا الزّمان بقولهم مضى الزّمان وذهب. قال تعالى ﴿وما محمّدٌ إلّا رسولٌ قد خلت مِنْ قبله الرّسل﴾ ﴿وقد خلت من قبلهم المَثُلات﴾[1] والمثلات : العقوبات المنكّلات والواحدة منها مَثُلَة بفتح الميم وضمّ الثّاء، ثمّ تُجْمع مثلات، كما واحدة الصّدُقات صدقة ثمّ تجمع صدُقات[2] والمثلة : نقمةٌ تنزل بالإنسان فيُجْعل مثالاً يرتدع به غيره وذلك كالنّكال[3] والمُثله بضمّ الثّاء وسكونها، فيقال المُثله والمُثلة[4].

أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى ما يستحقّ أنّ يُتَعَجَّب منه وهو استبعاد كفّار مكّة أن يعودوا خلقاً سويّاً يوم القيامة وهم الّذين يعلمون أنّ الله تعلى هو الّذين خلقهم أوّل مرّة. وإنّ هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تشير إلى عجيبةٍ أخرى وهي استعجال كفّار مكّة السّيئة قبل الحسنة والعذاب قبل المغفرة والبلاء قبل العافية! وينبغى أن يكون للفظ : ﴿قبل﴾ دورٌ فى تقوية المعنى وزيادة العجب.

وليس وراء حمق القوم وسفههم وراء. والآية الكريمة تذكّرنا بمثل قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الانفال[5] : ﴿وإذ قالوا اللّهمّ إنّ كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم﴾ ولا يكاد العجب ينتهى من كفّار مكّة حينما يتبيّن أنّهم يستعجلون المصطفى ﷺ بالسّيّئة وبالعذاب وهم على علمٍ تامّ بالعقوبات المنكّلات الّتى كانت من نصيب المكذّبين السّابقين والّتى كانت من الشّيوع والذّيوع إلى

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خلا» ١٥٨ .

(٢) تفسير الطّبري ١٣/ ٧٠ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «مثل» ٤٦٣ .

(٤) انظر القاموس : «مثل» .

(٥) الآية ٣٢ .

الحدّ الّذى كانت معه بمثابة المثال الّذين يرتدع به الآخرون، والنّكال الّذين يُخَوَّف به الظّالمون.

لقد كان الأَوْلى بكفّار مكّة ومن ماثلهم أن يستعجلوا بالحسنة وبالرّحمة وبالعافية. وإنّ الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ بقصد تسليته ﷺ وتثبيت فؤاده وذلك فى القول مرّتين اثنتين: ﴿وإنّ ربّك﴾ والمعروف أنّ لفظ الرّبّ يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص، وفى معرض ذكر النّعم والمنن، وبقصد إشاعة جوّ الودّ والاطمئنان. إنّ ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لذو مغفرةٍ للنّاس على ظلمهم وفيهم كفّار مكّة فعليهم أن يتوبوا توبةً نصوحاً، وإنّ ربّك يا محمّد لشديد العقاب لمن يركب رأسه ولا يرعوى إلى رشد. ومن البيّن أنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم لم يستفيدوا من آيات الله تعالى البيّنات فى القرآن الكريم، وفى ملكوت السّماوات والأرض. إنّ عليهم أن يؤمنوا ويعملوا ليوم القيامة ويتفكّروا ويستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

تشير الآية الكريمة إلى أمرٍ ثالثٍ متعلّقٍ بكفّار مكّة يستحقّ أن يتعجّب منه كلّ عاقل بسبب تعطيل القوم عقولهم عن العمل الصّحيح. إنّ القوم أرباب البيان وأئمّة الفصاحة. وإذا كان أهل مكّة يشتركون مع سائر العرب فى امتلاك ناصية البلاغة العربيّة فإنّهم ينفردون دون سائر العرب والعجم بأنّ لديهم سبباً خاصّاً يدفعهم إلى اتّباع هذا الرّسول الكريم وهو أنّه عليه الصّلاة والسّلام ابن مدينتهم البارّ. إنّهم ينظرون إلى الأمور نظرةً معكوسة. إنّهم بدلاً من أن ينظروا فى صاحبهم محمّد ﷺ نظرةً منصفةً هم يعميهم داء التّنافس بين بيوتات مكّة ولا يريدون لبنى هاشم الّذين اصطفى الله تعالى محمّداً ﷺ منهم أن يكون لهم شرف السّبقّ. وإنّهم بدلاً من أن يعترفوا بإعجاز القرآن الكريم، وهم أئمّة البيان وأرباب الفصاحة، هم يقترحون على المصطفى ﷺ آياتٍ أخرى ماديّة محسوسة تقلّ كلّها فى مجال الإقناع عن القرآن الكريم لأنّ الآيات الماديّة محدودةٌ بمثلّثٍ ذى ثلاثة أضلاع من الزّمان المحدود والمكان المحدود والفئة المحدودة القليلة العدد الّتي تشاهد الآية أو الآيات. قارن هذه الآيات المحصورة داخل هذه الحدود الثلاثة وبين آية القرآن الكريم البيانيّة الخالدة إلى يوم الدّين والّتي ترضي كلّ عقلٍ حصيف بفصوص حكم المعاني وكلّ نفسٍ صافية بجميل تركيب المباني.

إنّ كفّار مكّة يعرضون عن القرآن الكريم ويقولون هلّا أُنْزِل على محمّد آيةٌ أخرى غير القرآن الكريم من ربّه جلّ وعلا.

ولمّا كان ﷺ رسولاً من ربّه جلّ وعلا وعليه البلاغ فقط ولا يد له فى فضل الله تعالى باصطفائه بنعمة الرّسالة والمعجزة فإنّ الآية الكريمة تعبّر عن هذه المعانى بأمر المصطفى ﷺ بأن يقول لأولئك المتعنّتين المصرّين على كفرهم بأنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس إلاّ منذراً لهم ولأمثالهم بين يدي عذابٍ شديد. ولمّا كانت سنّة الله تعالى ألاّ يعذّب قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً فإنّ الآية الكريمة تختم بتقرير هذا المعنى: ﴿ولكلّ قومٍ هادٍ﴾ والهادى هو الرّسول الّذين يبعثه الله تعالى كي يهدي النّاس إلى الصّراط المستقيم.

إنّ هذا القول: ﴿ولكلّ قومٍ هادٍ﴾ يصحّ أن يفهم منه بأنّ الله تعالى قد أرسل إلى كلّ أمّةٍ هادياً لهم من الضّلالة وبأنّ محمّداً ﷺ واحدٌ من هؤلاء الهادين وخاتمهم وأشرفهم. ويصحّ أن يفهم من هذا القول بأنّ محمّداً ﷺ هو الهادى كلّ قومٍ إلى يوم الدّين من الضّلالة لأنّه عليه الصّلاة والسّلام خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين. ومن البيّن أنّ هذا المعنى جزءٌ من المعنى الأوّل الشّامل. وعليه يصحّ ترجيح المعنى الأوّل بأنّه هو المقصود هنا. والله تعالى أعلم.

((الله تعالى هو عالم الغيب والشهادة وهو الكبير المتعال))
الآيـات (٨ ـ ١٦)

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

وما تغيض الأرحام : وما تنقص الأرحام من حملها فى الأشهر التّسعة بإرسالها دم الحيض[١] يعنى السّقط[٢].

وماتزداد : في حملها على الأشهر التّسعة لتمام ما نقص من الحمل في الأشهر التّسعة بإرسالها دم الحيض[٣].

وكلّ شيءٍ عنده بمقدار : أي بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلاً معلوماً[٤].

الكبير : الّذى كلّ شيءٍ دونه[٥].

المتعال : المستعلى على كلّ شيءٍ بقدرته، وهو المتفاعل من العلوّ مثل المتقارب من القرب والمتدانى من الدّنوّ[٦].

أنكر كفّار مكّة البعث بعد الموت واستكثروا أن يعودوا فى خلق جديدٍ بعد أن غدوا تراباً وعظاماً رغم اعترافهم بأنّ الله تعالى هو الّذين أوجدهم من العدم، وهذا التّناقض هو السّبب فى العجب منهم. والسّياق يتحدث فى عمليّة الخلق هذه من زاويتي العلم والقدرة.

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما تحمل كلّ أنثى من النّاس والحيوان فى البرّ والبحر، ويعلم ما تغيض الأرحام وتنقص من حملها فلو خرج الجنين فى أثنائها لكان خداجاً، ويعلم ما تزداد الأرحام فى حملها حتّى تكتمل مدّة الحمل المقدّرة

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/٧٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٢ .

(٣) تفسير الطّبري ١٣/٧٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٣ .

(٥) تفسير الطّبري ١٣/٧٥ .

(٦) تفسير الطّبري ١٣/٧٥ .

بإرادة الله تعالى، وهي فى حقّ الإنسان تسعة أشهر. وكلّ شيءٍ عنده جلّ وعلا بمقدارٍ وأجلٍ مقدّرٍ مضبوطٍ لا يتقدّم ولا يتأخّر.

ومن العلماء من فهم الزّيادة بأنّها الزّيادة على التّسعة الأشهر. وهذه الزّيادة الأكيدة حولها خلافٌ بين العلماء. إنّها قد تزيد على التّسعة الأشهر: «إلى سنتين عند أبى حنيفة، وإلى أربع عند الشّافعيّ، وإلى خمس عند مالك. وقيل إنّ الضّحّاك ولد لسنتين. وهرم بن حبّان بقي فى بطن أمّه أربع سنين. ولذلك سمّي هرماً»[1] ويقول القرطبيّ[2]: «فى هذه الآية دليلٌ على أنّ الحامل قد تضع حملها لأقلّ من تسعة أشهر وأكثر. على أنّ أقلّ الحمل ستّة أشهر، وأنّ عبد الملك بن مروان ولد لستّة أشهر».

وهكذا يتبيّن أنّ ثمّة اتفاقاً بين العلماء بشأن الغيض وأنّه بمعنى النّقصان عن التّسعة الأشهر، وأنّ ثمّة اختلافاً بين العلماء بشأن الزّيادة. فمنهم من فهم الزّيادة بأنّها الزّيادةُ على الغيض حتّى تكمل مدّة الحمل وهي تسعة أشهر، ومنهم من فهم الزّيادة بأنّها الزّيادة على التّسعة الأشهر.

والحقيقة أنّ الظّاهرة الّتى تصبغ السّورة بلونها، وهى الجمع بين الصّفات المتقابلة، يصحّ أن تسعفنا على قبول الرّأى الّذين يقول إنّ الزّيادة تعنى الزّيادة عن التّسعة الأشهر لأنّ الغيض يعنى النّقص عن التّسعة الأشهر. والله تعالى أعلم.

فى الصّحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ خلق أحدكم يجمع فى بطن أمّه أربعين يوماً، ثمّ يكون علقةً مثل ذلك، ثمّ يكون مضغةً مثل ذلك، ثمّ يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وعمره وعمله وشقيٌّ أو سعيد. وفى الحديث الآخر فيقول الملك: أَيْ ربّ أذكرٌ أم أنثى؟ أَي ربّ أشقيٌ أم سعيد؟ فما الرّزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله ويكتب الملك[3].

وإنّ الله تعالى الّذين لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء، بما فى ذلك ما غاب فى الأرحام، تذكر الآية الكريمة التّالية بعضاً من نعوته جلّ وعلا. إنّه عالم كلّ ما غاب. وفى مقدّمة ذلك مفاتيح الغيب الخمسة وعالم الشّهادة وهو ما يشاهده العباد

---

(١) الكشاف ٢/١٦٠ وانظر تفسير القرطبي ٣٥١٦ وتفسير الطّبري ١٣/٧٣ ـ ٧٥ والبحر المحيط ٥/٣٦٩.

(٢) تفسير القرطبي ٣٥١٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٢ وأَيْ هنا حرف نداء.

ويبصرونه. إنّ ما يغيب وما يشاهد سواءٌ في علم الله تعالى الكبير المتعال، والكبير هو الأكبر من كلّ كبير، والمتعال هو المستعلي على كلّ شيءٍ بقدرته وقهره.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلّا الله: لا يعلم ما في غدٍ إلّا الله. ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلّا الله. ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلّا الله، ولا تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت، ولا يعلم متى تقوم السّاعة إلّا الله[1].

سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

وساربٌ بالنّهار: وظاهرٌ بالنّهار في ضوئه لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك[2] والسّارب الذّاهب في سَرَبه أيّ طريقٍ كان[3] والسَّرَب: الذّهاب في حُدور. والسَّرَب: المكان المنحدر[4].

تقرّر الآية الكريمة أنّه يستوي في علم الله تعالى الّذي لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السّماء من أسرّ القول ومن جهر به، ومن هو مستخفٍ بظلام اللّيل يقوم في أثنائه بالأعمال الّتي يظنّ أنّ اللّيل يسترها بظلامه ومن هو ظاهرٌ بالنّهار وماشٍ في ضوئه وبادٍ للعيان ويقوم في أثناء النّهار بالأعمال الّتي يظنّ أنّ النّهار يظهرها بضوئه. إنّ الله سبحانه وتعالى مطّلعٌ على نيّة كلّ إنسانٍ وقصده حينما يسرّ القول أو يجهر به، وحينما يسرّ العمل أو يظهره ليلاً أو نهاراً. وسيجازي جلّ وعلا كلاًّ بنيّته إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ. قال عزّ من قائل[5]: ﴿وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السّرّ وأخفى. الله لا إله إلّا هو له الأسماء الحُسنى﴾ إنّ الله تعالى يعلم ما توسوس به نفس كلّ إنسانٍ ومن باب الأحرى ما يسرّ من قول وما يجهر به. وما يستر من عمل وما يظهر.

---

(١) صحيح البخاري ٦/٩٩.

(٢) تفسير الطّبري ١٣/٧٥.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «سرب» ٢٢٩.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «سرب» ٢٢٩.

(٥) سورة طه ٧ و ٨.

لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ
مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ
وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

له معقّبات : المعقّبات الّتي تتعقّب على العبد. وذلك أنّ ملائكة اللّيل إذا صعدت بالنّهار أعقبتها ملائكة النّهار. فإذا انقضى النّهار صعدت ملائكة النّهار ثمّ أعقبتها ملائكة اللّيل[1] جاء فى الحديث الصّحيح : يتعاقبون فيكم ملائكةٌ باللّيل وملائكةٌ بالنّهار ويجتمعون فى صلاة الصّبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الّذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى فيقولون أتيناهم وهم يصلّون. وتركناهم وهم يصلّون. وفى الحديث الآخر : إنّ معكم من لا يفارقكم إلّا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم[2] والملائكة جمع ملك مذكّر غير مؤنّث. وواحد الملائكة معقّب وجماعتها معقّبة ثمّ جمع جمعه. أعنى جُمع معقّب بعد ما جمع معقّبة وقيل معقّبات[3] والأصل معتقبات فأدغمت التّاء في القاف لقوله : وجاء المعذّرون بمعنى المعتذرون[4] .

من بين يديه ومن خلفه : من قدّامه ومن وراء ظهره[5].
يحفظونه من أمر الله : أي بأمر الله[6] أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرسٌ باللّيل وحرسٌ بالنّهار يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكةٌ آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شرّ. ملائكةٌ باللّيل وملائكةٌ بالنّهار. فاثنان عن اليمين والشّمال يكتبان الأعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشّمال يكتب السّيّئات.

---

(١) تفسير الطّبري ٧٦/١٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ٥٠٣/٢ .
(٣) تفسير الطّبري ٧٦/١٣ .
(٤) الكشّاف ٦٠/٢ .
(٥) أنظر تفسير الطّبري ٧٦/١٣ .
(٦) الجلالين .

وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه. واحدٌ من ورائه وآخر من قدّامه، فهو بين أربعة أملاكٍ بالنّهار وأربعةٍ آخرين باللّيل بدلاً. حافظان وكاتبان[1] عن ابن عبّاس ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه. فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه[2].

وما لهم من دونه من وال: من ناصرٍ يمنعهم من عذاب. ووالٍ ووليّ كقادر وقدير[3].

بشأن الضّمير من القول: ﴿له معقّبات﴾ ثمّة رأيان. رأي يذهب إلى أنّ الضّمير يعود إلى جنس الأنسان الّذي أشارت إليه الآية الكريمة السّابقة الّذي يسرّ القول ويجهر به ويستخفى باللّيل ويسرب بالنّهار: «وقال ابن عباس: هو عائدٌ على من فى قوله: ومن هو مستخف. وكذلك فى باقى الضّمائر الّتى فى الآية»[4] ورأيٌ آخر يذهب إلى أنّ الضّمير يعود إلى الذّات العليّة. يقول القرطبيّ[5] مثلاً: «له معقبات: أى لله ملائكة يتعاقبون باللّيل والنّهار. فإذا صَعَدت ملائكة اللّيل أعقبتها ملائكة النّهار» وكلا الرأيين معقول ومقبول. ويصحّ أن يكون لإجماع العلماء على عودة الضّمير على الذّات العليّة فى القول فى الآية الكريمة الرّابعة عشرة: ﴿له دعوة الحقّ﴾ دورٌ فى ترجيح الرّأي القائل بعودة الضّمير إلى الذّات العليّة لأنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً. والله تعالى أعلم.

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ لله سبحانه وتعالى ملائكةً تتعاقب الإنسان من بين يديه ومن خلفه يحفظونه بأمر الله تعالى. وإذا كانت الآية الكريمة قد أشارت إلى الملكين الحافظين للإنسان ليلاً ونهاراً من بين يدي الإنسان ومن خلفه بالتّناوب، فإنّ هذه الآيات الكريمات من سورة ق تشير إلى الملكين الكاتبين لأعمال الإنسان ليلاً ونهاراً بالتّناوب كذلك فثمّة ملكان كاتبان ليلاً وملكان كاتبان نهاراً على غرار الملكين الحافظين ليلاً ونهاراً. قال تعالى[6]: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين وعن الشّمال قعيد. ما يلفظ من قولٍ إلّا لديه رقيبٌ عتيد﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٣ وتفسير الطّبري ١٣/٧٧.

(٣) تفسير القرطبي ٣٥٢٤.

(٤) البحر المحيط ٥/٣٧١.

(٥) تفسير القرطبي.

(٦) سورة (ق) ١٦ - ١٨.

والآية الكريمة يجيء فيها بعد ذلك القول : ﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ الّذى يفسّره قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأنفال[1] : ﴿ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى لا يغير نعمةً أنعمها على قوم من صحّةٍ وعزٍّ وجاهٍ وسعادةٍ وما إلى ذلك حتى يغيّروا ما بأنفسهم فيبدّلوا نعمة الله تعالى كفراً ويحلّوا قومهم دار البوار فيحوّل الله تعالى الصّحّة مرضاً والعزّ ذلاً والجاه صغاراً والسّعادة شقاءً وهكذا . فإذا أراد القوم أن تعود إليهم النّعمة عليهم أن يعودوا إلى الله تعالى أوّلاً.

وإذا أراد الله تعالى بقومٍ سوءاً فلا مردّ له ولا صارف ولا دافع، وليس لهم من دون الله تعالى من وليٍّ ولا ناصر.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

وهو شديد المحال : وهو شديد الأخذ بالعقوبة[2] وعن عليّ رضي الله عنه أي شديد الأخذ : وقال مجاهد : شديد القوّة[3].

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذين يرينا البرق وهو لمعان السّحاب[4] خوفاً من المطر إن كنّا مسافرين أو غير مستعدّين لاستقباله وطمعاً فيه إن كنّا مقيمين أو مستعدّين لاستقباله أو محتاجين له. والله تعالى هو الّذين ينشىء السّحاب الثّقال الموقر بالماء إنشاءً. وحينما يكون ربّ العزّة هو الّذين يرينا البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السّحاب الثّقال فذلك معناه أنّه جلّ وعلا هو المستحقّ للعبادة وحده جلّ وعلا، ومن مظاهر العبادة التّسبيح بحمد الله تعالى. وإذا كانت الآية الكريمة قد ذكرت من متعلّقات المطر البرق والسّحاب فإنّ الآية الكريمة التّالية ذكرت من متعلّقات المطر الرّعد

---

(١) الآية ٥٣ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «محل» ٤٦٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٧ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «برق» ٤٣ .

والصّواعق. ومن البيّن أنّ البرق والسّحاب يُبصران بالعين، وأنّ الرّعد والصّواعق يُسْمَعان بالأذن. وإذا كان المفهوم من القول فى صدر الآية الكريمة الأولى : ﴿هو الّذي﴾ أنّ الله سبحانه وتعالى هو المستحقّ للعبادة وحده لا شريك له ومن مظاهر العبادة التّسبيح بحمد الله تعالى فإنّ الآية الكريمة التّالية تنصّ فى صدرها على أنّ الرّعد يسبّح بحمد الله تعالى بأن يقول : سبحان الله وبحمده، وكذلك تسبّح الملائكة من خيفته جلّ وعلا. وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿تسبّح له السّماوات السّبع والأرض ومن فيهنّ. وإن من شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنّه كان حليماً غفوراً﴾.

ومن البيّن أنّ الرّعد صوتٌ، فكلّه تسبيحٌ بحمد الله تعالى. وإنّ كلّ عمل الملائكة عبادة الله تعالى والتّسبيح بحمده جلّ وعلا لأنّ الملائكة بطبعهم : ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[2].

والله سبحانه وتعالى يرسل الصّواعق الّتى تزيد على الرّعد فى درجة الصّوت وبالإحراق فيصيب بها جلّ وعلا من يشاء من عباده.

إنّ كفّار مكّة يعلمون كلّ ذلك ومع ذلك هم يخاصمون المصطفى ﷺ فى الله تعالى ويجادلون وهو جلّ وعلا شديد المحال وقويّ الأخذ للكافرين المكذّبين المستهزئين الّذين يجادلون بالباطل.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ لله تعالى دعوة الحقّ وكلمة التّوحيد وشهادة ألاّ إله إلاّ الله. فالله تعالى هو المستحقّ أن يعبد وحده لا شريك له، لأنّ له جلّ وعلا الخلق والأمر.

أمّا الآلهة الّتى يعبد كفّار مكّة وأمثالهم والأصنام والأوثان الّتى يدعونها من دون الله تعالى فإنّها لا تستجيب لهم لأنّها لا تسمع أساساً، إلاّ استجابةً كاستجابة الماء فى البئر

---

(١) سورة الإسراء ٤٤.

(٢) سورة التّحريم ٦.

لذلك المغفّل المجنون الّذى يقف على شفير البئر ويبسط كفّيه إلى الماء ويدعوه كي يرقى من قاع البئر إلى كفّيه كي يبلغ الماء فاه فيدفع العطش عنه. وليس الماء ببالغٍ فاه بل ليس الماء بمغادرٍ قاع البئر. إنّ كفّار مكّة يطلبون من الأصنام والأوثان أن تستجيب لهم وتنفعهم ولكنّها عاجزةٌ أصلاً لأنّها جماد. وإنّ العطشان الأحمق يطلب من الماء فى قاع البئر أن يرقى إلى كفّيه كي يشرب ويرتوي ولكنّه عاجزٌ أصلاً لأنّه جماد. إنّ الطّريق الصّحيح للحصول على النّفع هو دعاء الله تعالى وحده لا شريك له وليس الأصنام والأوثان. وإنّ الطّريق الصّحيح للحصول على الماء هو اتخاذ الوسيلة السّليمة وإرسال الدّلو ضمن الدّلاء وليس نداء الماء. إنّ لله تعالى دعوة الحقّ فليعبد النّاس الله تعالى وحده لا شريك له ويشهدوا أنّه لا إله إلا هو فذلك هو الطّريق الصّحيح الموصل إلى الحياة الطّيّبة فى الدّارين ، أمّا دعاء الكافرين الآلهة المزعومة فليس إلاّ الضّلال ولا يفضى إلاّ إلى البوار والهلاك.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾

بالغدوّ : الغدوّ جمع الغُدْوة. والغُدوة والغداة من أوّل النّهار[1]. -

والآصال : أي العشايا. يقال للعشيّة أصيلٌ وأصيلة. فجمع الأصيل أُصُل وآصال. وجمع الأصيلة أصائل[2] والأصيل هو العشيّ وهو ما بين العصر إلى مغرب الشّمس[3].

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق من أجل أن يفردوه جلّ وعلا بالعبادة. قال عزّ من قائل[4] : ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون﴾. وأقرب ما يكون العبد من ربّه جلّ وعلا وهو ساجد. والآية الكريمة تقرّر أنّ لله تعالى وحده لا شريك له يسجد على جهة الاستحقاق كلّ من فى السّماوات والأرض طوعاً فى حقّ المؤمنين وكرهاً فى حقّ غير المؤمنين. كما تسجد لله تعالى ظلال المؤمنين والكافرين بالغدوّ والآصال فى أوّل النّهار وفى

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «غدا» ٣٥٨ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «أصل» ١٩ .

(٣) تفسير الطّبري ٨٨/١٣ .

(٤) سورة الذّاريات ٥٦ .

آخره حينما يكون الظّلّ طويلاً فى هذين الوقتين ومن باب الأولى أن يكون ثمّة سجودٌ فى غير هذين الوقتين.

أمّا سجود المؤمن طوعاً فلأنّه يسجد لله تعالى فعلاً ويمتثل لإرادته جلّ وعلا ويعلم أنّ عليه أن يطيع الله تعالى ولا يعصيه. وكما يطيع المؤمن الله تعالى وكما تتجلّى الطّاعة فى أسمى صورها فى السّجود فإنّ ظلّ المؤمن تَبَعٌ له فى الطّاعة. وفى السّجود فى الغدوّ والآصال وفى كلّ الأوقات.

وأمّا الكافر فإنّه إذا كان لا يعبد الله تعالى ولا يسجد له فإنّه مرغمٌ على أن يخضع لإرادة الله تعالى فى كلّ ما كتب الله تعالى عليه ولذا عبّر عنه بأنّه يسجد كرهاً. وكما يسجد الكافر بهذا المعنى ويخضع كرهاً يسجد ظلّه ويخضع في الغدوّ والآصال وفي كل الأوقات.

ومن البيّن التّقابل فى الصّفات بين الطّوع والكره. وبين الغدوّ والآصال، خاصّة وأنّ الظّلّ فى الغداة يتقلّص وفى الأصيل يمتدّ.

- قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۚ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

يأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يسأل كفّار مكّة الّذين لا يعبدون الله تعالى ويعبدون الأصنام: من ربّ السّماوات والأرض؟ والجواب معروفٌ لأنّ القوم يؤمنون بتوحيد الرّبوبيّة. فالله سبحانه وتعالى ربّ السّماوات والأرض وموجدهما من العدم ولا جواب غير هذا الجواب. ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام بعد ذلك أن يسأل كفّار مكّة على جهة الإنكار والتّوبيخ لأنّهم لم يرتّبوا على الجواب الصّحيح التّصرّف الصّحيح بإفراد الله تعالى بالعبادة وأن يقول لأولئك الكافرين: أفاتّخذتم من دون الله تعالى أولياء ونصراء لا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم نفعاً ولا ضرّاً! ويترتّب على هذا السّؤال سؤالٌ آخر إنكاريّ توبيخيّ يُطْلَبُ منه عليه الصّلاة والسّلام أن يطرحه عليهم وهو: هل

يستوى الأعمى الّذى لا يبصر الكافر الّذى لا يهتدى، والبصير الّذى يرى المؤمن الّذى يسير فى الصّراط المستقيم؟ والجواب بطبيعة الحال معروف. لا يستويان. ولهذا السّؤال شقٌّ آخر وهو: ﴿أم هل تستوى الظّلمات والنّور﴾ ومن البيّن مجىء الظّلمات فى صيغة الجمع لأنّ طرق الضّلال لا حصر لها، ومجىء النّور فى صيغة المفرد لأنّ طريق الحقّ واحد وواضح. ومن البيّن التّقابل فى الصّفات بين الظّلمات والنّور وذلك على غرار التّقابل السّابق فى الصّفات بين الأعمى والبصير، والنّفع والضّرّ، والسّماوات والأرض.

ويستمرّ الإنكار والتّوبيخ فى السّؤال الأخير: أم جعل كفّار مكّة ومن شاكلهم لله تعالى شركاء من الأصنام والأوثان لأنّهم خلقوا كخلق الله تعالى فتشابه عليهم خلق الأصنام والأوثان وخلق الله تعالى. ولكن من المعروف عقلاً ونقلاً أنّ الّذين يدعون من دون الله تعالى لن يخلقوا ذبابّاً ولو اجتمعوا له. ولذلك يكون فى آخر الآية الكريمة تقريرٌ لهذه الحقيقة وهي أنّ الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له خالق كلّ شىءٍ، وهو سبحانه وتعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهو سبحانه وتعالى القهّار العزيز الجبّار المتكبّر، لا ربّ غيره ولا معبود بحقٍّ سواه.

إنّ على كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يفردوا بالعبادة الله تعالى الخالق البارىء المصوّر العليم القدير الواحد القهّار.

((مثلان : مائيٌ ونارِيٌ))
الآيــة رقم (١٧)

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

فسالت أوديةٌ بقدرها : فاحتملته الأودية بملئها. الكبير بكبره والصّغير بصغره[1] وبقَدْر المكان المقدَّر لأن يسعها[2] وبحسبه فهذا كبيرٌ وسع كثيراً من الماء، وهذا صغيرٌ فوسع بقدره[3].

فاحتمل السّيل زبداً رابياً : الزّبد زبد الجمل الهائج وهو لُغامه الأبيض الّذى تتلطّخ به مشافره إذا هاج، وزبد الماء والفضة وغيرها[4] رابياً : عالياً فوق السّيل[5].

كذلك يضرب الله الحقّ والباطل : كما مثّل الله الإيمان والكفر فى بطول الكفر وخيبة صاحبه عند مجازاة الله بالباقى النّافع من ماء السّيل وخالص الذّهب والفضّة كذلك يمثّل الله الحقّ والباطل[6].

فأمّا الزّبد فيذهب جفاءً : أي باطلاً . قال الفرّاء : أصله الهمزة. ويقال : جفأ الوادى غثاءه إذا رَمَى بالزّبد والقذى[7].

بعد الحديث من ذى قبل عن السّحاب الثّقال والرّعد والبرق والصّواعق يأتى الحديث هنا عن المثلين، المائيّ والناريّ. وبما أنّ علاقة الماء بالسّحاب تتقدم علاقة السّحاب بالنّار أعنى الصّواعق فكأنّ تقديم المثل المائيّ يتمشّى مع تلك العلاقة المتقدمة للماء بالسّحاب. ومن البيّن التّقابل فى الصّفات بين المثلين المائي والناريّ.

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/٩٠ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «قدر» ٣٩٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٨ .

(٤) انظر لسان العرب : «زبد» .

(٥) تفسير الطّبري ١٣/٩٠ .

(٦) تفسير الطّبري ١٣/٩٠ .

(٧) انظر لسان العرب : «جفأ» .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل وحده لا شريك له من السّماء ماءً. ومن البيّن أنّ الماء ينزل إلى الأرض المفهومة ضمناً، فكأن التّقابل فى الصّفات مفهومٌ ضمناً بين السّماء من ناحية وبين الأرض الّتى عُبّر بالأودية عن جزئها التّرابيّ من ناحيةٍ أخرى.

وبسبب نزول المطر، وتدفّقه فى الأرض، وتجمّعه فى بعض المواضع سالت بإرادة الله تعالى أوديةٌ بقدرها وتدفّقت بالكمّيّة من الماء الّتى تطيقها وتتّسع لها. إنّ الوادي الكبير يتّسع للماء الكثير. وإنّ الوادي الصّغير يتّسع للماء القليل. وبما أنّ هذا الماء النّازل من المزن عذبٌ ومتحرّكٌ بإرادة الله تعالى ومتدفّقٌ فى المسايل والشّعاب والأودية، وبما أنّ الماء المتدفّق يَحْمِل بإرادة الله فى أثنائه والقذى، وفوق ظهره الزّبد والغثاء، ولمّا كان الزّبد شركةً بين الماء العذب المتدفّق وبين المعدن الموقد عليه فى النّار المتحيّر فى البَوْتقة فإنّ الحديث عن السّيل أعقبه الحديث عن الزّبد أو الغثاء الّذى يحمله الماء العذب المتحرّك، ويلحق به الأذي والقذى فى أثناء السّيل وفى أعماقه.

والعجيب في الزّبد أنه محمولٌ فوق الماء العذب عناءً، نامٍ فوق الماء المتحرّك ابتلاءً.

ومن البيّن بشأن هذا المثل المائيّ أنّ الماء لبٌّ وجوهر وأنّ الزّبد أذىً وقذىً. والعجيب فى الأمر أنّ الماء اللّبّ والجوهر يركبه الزّبد الأذى والقذى. هكذا شاءت إرادة الله تعالى. والعجيب كذلك أنّ الزّبد يزداد نموّه بمقدار زيادة حركة الماء العذب النّمير.

وإنّ الشّىء ذاته يقال بشأن المثل النّاريّ. إنّ المثل يشير إلى العمليّة الدّقيقة الّتى يقوم بها الصّاغة حينما يريدون الحصول على الحليّ من الذّهب والفضّة وما إليهما. وعلى المتاع من النّحاس والحديد وما إليهما. وكأنّ ثمّة تقابلاً فى الصّفات بين الحلية والمتاع. إنّ المعدن يوقد عليه فى النّار الّتى تحيط بالبوتقة الّتى فيها المعدن. وكما طفا فوق الماء وهو جوهر الزّبد وهو عرض، طفا فوق المعدن الّذى أصبح سائلاً وهو جوهر، الزّبد وهو عرض. إنّ علوّ الزّبد فوق الماء والمعدن إنّما تمّ بإذن الله تعالى. ومن البيّن أنّ حقّ الزّبد أنّ يُقْذَفَ به بعيداً وأنّ الماء والمعدن أن يبقى كلٌ منهما خالصاً فريداً. لقد هيّأ القول بعد ذلك لمثل هذا الفهم: ﴿كذلك يضرب الله الحقّ والباطل﴾ والمعنى: فى مثل هذه الطّريقة يضرب الله تعالى مثل الحقّ الّذى حقّه أن يبقى ومثل الباطل الّذى حقّه أن يزهق. وبذلك فُهِم أنّ المثلين ضُربا للحقّ والباطل بقصد تبيين طبيعة العلاقة بين الحقّ

والباطل. إنّ العلاقة علاقة صراعَ دائم بين الحقّ والباطل، بين الإيمان والكفر، بين الخير والشرّ. والعجيب في أمر الباطل والكفر والشرّ أنّها دائماً عالةٌ على الحقّ والإيمان والخير. بل إنّ الباطل والكفر والشرّ ربّما كان لها الصّولة والظفر على الحقّ والإيمان والخير، بل ربّما كان لها أكثر من جولة ولكنّ العاقبة دائماً للمتّقين والنّصر دائماً للحقّ والإيمان والخير. إنّ هذه العاقبة الحميدة الّتي أومأ إليها القول : ﴿كذلك يضرب الله الحقّ والباطل﴾ قد صرّح بها القول : ﴿فأمّا الزّبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع النّاس فيمكث في الأرض﴾ إنّ مصير الزّبد والباطل والكفر والشرّ أن يذهب جفاءً، ويمضي هباءً. وكأنّ هذا التّعبير : ﴿فيذهب جفاءً﴾ يعني أنّ على الزّبد وما في حكمه أن يذهب جفاءً طائعاً وإلاّ ذهب كارهاً. أمّا ما ينفع النّاس من ماء ومعدنٍ وحقّ وإيمانٍ وخير وما إلى ذلك فإنّ كلّ ذلك سوف يمكث في الارض لأنّ في كلّ ذلك نفع النّاس، كلّ النّاس.

إنّ في مثل هذه الطّريقة يضرب الله تعالى الأمثال لتقريب المعاني البعيدة وجعل المفهوم في هيئة الشيء المحسوس كي يعقلها العالمون وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلاّ العالِمون﴾.

وإنّ ذكر الحقّ والباطل وضرب الله تعالى مثل الحقّ بالماء والمعدن ومثل الباطل بالزّبد الّذي يذهب جفاءً وذكر الأودية الّتي تسيل بالماء وتحمل منه ما تتّسع له في هذه الآية الكريمة من السّورة الّتي يرجح أنّها مكّيّة ومن أهدافها تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ يحملنا كلّ ذلك على موافقة العلماء الّذين ذهبوا إلى أنّ للماء والأودية غايةً وهدفاً. إنّ الماء النّازل من السّماء كأنّه يراد به القرآن الكريم النّازل هو الآخر من السّماء لاشتراك القرآن الكريم وماء السّماء في كونهما على التّوالي غذاءً للأرواح وللأجسام. وكأنّ الأودية الّتي تختلف طاقات استيعابها لماء السّماء يراد بها القلوب الّتي تختلف طاقات استعدادها واستيعابها لمعاني القرآن الكريم الّذي يهدي للطّريقة الّتي هي أقوم والّذي لا يزيد الظّالمين إلاّ خساراً والعياذ بالله.

---

(١) سورة العنكبوت ٤٣ .

﴿للّذين استجابو لربّهم الجنّة وللّذين لم يستجيبوا النّار﴾
(الآيات ١٨ ــ ٢٥)

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

الحُسْنى : الجنّة[1].

وبئس المهاد : وبئس الفراش والوطاء جهنّم الّتى هي مأواهم يوم القيامة[2].

تتحدّث الآية الكريمة عن الفريقين المتقابلين فى الصّفات، عن المؤمنين الّذى أجابوا ربّهم جلّ وعلا بالطّاعة وامتثلوا لأوامره ونواهيه عزّ وجلّ وهؤلاء جزاؤهم يوم القيامة الجنّة الّتى فيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، وعن الكافرين الّذين لم يستجيبوا لربّهم جلّ وعلا. إنّ هؤلاء الكافرين لو أنّ لهم يوم القيامة ما فى الأرض جميعاً، وأنّى لهم ذلك، ولو أنّ لهم مثله معه، وبذلك تأكّد المستحيل، ولا ننسى أنّ مبدأ الفداء مرفوض يوم القيامة، لبذله الكافرون من أجل أن يفتدوا أنفسهم من عذاب ذلك اليوم العظيم. وتجاه الممتنعات الثّلاثة من افتداءٍ بما فى الأرض جميعاً، وبمثله معه، وبقبول مبدأ الفداء تكون ثمّة الإشارة إلى ثلاثة مظاهر من العذاب. إنّ للكافرين سواء الحساب وذلك فى مقابل حسن الحساب فى حقّ المؤمنين. ومأواهم جهنّم فى مقابل الجنّة فى حقّ المؤمنين. وبئس الفراش والوطاء جهنّم فى مقابل نعيم المؤمنين المقيم.

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

الألباب واحدها لبّ[3] واللّبّ العقل الخالص من الشّوائب. وسمّي بذلك لكونه خالص ما فى الإنسان من معانيه كاللُّباب واللّبّ من الشّيء[4].

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/٩٣.

(٢) تفسير الطّبري ١٣/٩٣.

(٣) تفسير الطّبري ١٣/٩٣.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «لب» ٤٤٦.

في أسلوب الإنكار تسأل الآية الكريمة : أفمن يعلم أنّما أُنزِلَ إليك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم من ربّك جلّ وعلا ربّ العالمين من قرآن مجيد هو الحق وهو النّور المبين والصّراط المستقيم كمن هو أعمى في ظلمات الكفر والشّكوك والرّيب لا يبصر نوراً ولا يهتدي سبيلاً! والجواب معروف. إنهما لا يستويان. وحينما يعبر عن الكافر بأنّه الأعمى والمراد عمى البصيرة تكون صفات هذا الكافر الأعمى بعكس صفات الّذي يعلم أنّ القرآن الكريم هو الحقّ من ربّ العالمين. وإذا كان المؤمنون يتسمون بالبصائر النّيرّة والقلوب المبصرة فإنهم يتسمون كذلك بالعقول الرّاجحة والألباب الخالصة. لقد وَفّق ربُّ العزّة المؤمنين كي تكون بصائرهم نيّرةً، وعقولهم راجحةً، وقلوبهم سليمة.

ويتحدّث السّياق عن نعوت أولى الألباب.

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾

الميثاق : عقدٌ مؤكّدٌ بيمينٍ وعهد[1].

ويدرءون بالحسنة السّيّئة : يدفعون الشّرّ بالخير لا يكافئون الشّرّ بالشّرّ ولكن يدفعونه بالخير[2].

هذه هي أهمّ نعوت أولى الألباب كما بيّنتها الآيات الكريمات.

الوفاء بعهد الله تعالى وعدم نقض الميثاق.

صلة ما أمر الله تعالى به أن يوصل.

خشية الله تعالى.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «وثق» ٥١٢.

(٢) تفسير الطّبري ١٣/٩٥.

خوف سوء الحساب.
الصّبر ابتغاء وجه الله تعالى.
إقام الصّلاة.
الإنفاق ممّا رزق الله تعالى سرّاً وعلانية.
دفع السّيّئة بالحسنة.

ومن البيّن أنّنا بشأن السرّ والعلانية، الحسنة والسّيّئة، أمام الطّابع الّذى يتّضح فى سورة الرّعد وهو الجمع فى نسقٍ بين الصّفات المتقابلة.

وأولى صفات أولى العقول الرّاجحة أنّهم هم: ﴿الّذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ والمعروف أنّ الميثاق هو العهد المؤكّد بيمينٍ وما إلى ذلك. وأوّل ما يجب على أولى الألباب الوفاء به الوفاء بعهد الله تعالى الّذى أخذه من العباد وهم فى عالم الذّرّ بإفراده جلّ وعلا بالعبادة. وهذا العهد أشار إليه قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأعراف[1]: ﴿وإذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا. أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّيّةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾.

وهذا العهد المأخوذ بإفراد الله تعالى بالعبادة قد أكّده إرسال الله تعالى المرسلين والنّبيّين، وتكريم الله تعالى جنس الإنسان بالكثير من النّعوت والخصائص وفى مقدّمتها العقل الّذى ينبغى على الإنسان أن يستعمله استعمالاً صحيحاً. ومن البيّن أنّنا الآن أمام عددٍ من نعوت أولى العقول الرّاجحة.

إنّ الإيفاء بالعهد من نعوت أولى الألباب. ومن البيّن مجىء لفظ الجلالة فى القول: ﴿الّذين يوفون بعهد الله﴾ ممّا يعنى إنّ الإيفاء ينبغى أن يكون بعهد الله تعالى أوّلاً. ومن البيّن أنّ العبارة مثبتة فإذا تحوّلنا إلى القول: ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ تبيّنّا أنّ العبارة منفيّةٌ من ناحية وأنّها اشتملت على لفظة ﴿الميثاق﴾ من ناحيةٍ أخرى. والميثاق العهد المؤكّد بيمينٍ فى المقام الاوّل وكأنّ الآية الكريمة قد نصّت على حقّ الله تعالى أوّلاً وذلك فى القول: ﴿الّذين يوفون بعهد الله﴾ ثمّ على حقّ عباد الله تعالى آخراً وذلك فى القول: ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ إنّ من نعوت أولى الألباب أنّهم يوفون بعهد الله تعالى

---

(١) الآيتان ١٧٢ و١٧٣.

ولا ينقضون الميثاق . ومن البيّن التّناغم بين الإيفاء وبين كون الإيفاء بعهد الله تعالى . إنّ ثمة إيفاءً سهلاً بعهد. وهذا العهد هو عهد الله تعالى بتوحيده جلّ وعلا فى المقام الأوّل. ويأتى وراء ذلك حثّ عباد الله تعالى بالإيفاء بالعهود. ومن البيّن كذلك التّناغم بين النّفى : ﴿ولا ينقضون﴾ وبين : ﴿الميثاق﴾ وكأنّ الميثاق وهو العهد المؤكّد، بمثابة الحبل المحكم الفتل الّذى يحتاج شيئاً كبيراً من الجهد من أجل نقضه. وكأنّنا بصدد تجاوز مرحلة عدم الإيفاء إلى مرحلة النّقض. إنّ ممّا أكّد التّناغم فى القول المثبت : ﴿الّذين يوفون بعهد الله﴾ التّنبيه على عزّ الطّاعة والحثّ عليها لسهولتها . وإنّ ممّا أكدّ التّناغم فى القول المنفيّ : ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ التّنبيه على ذلّ المعصية والتّحذير من ارتكابها لصعوبتها بسبب اضطرار العاصى لكسر الكثير من الحواجز.

وإنّ صفة أولى الألباب التّالية أنّهم : ﴿يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ ابتداءً بالأرحام، ومن باب الأَوْلى الأقربون، ابتداءً بالوالدين. وممّا جاء فى الحثّ على صلة الرّحم قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ يا أيها النّاس اتّقوا ربّكم الّذى خلقكم من نفس واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً. واتّقوا الله الّذى تساءلون به والأرحام. إنّ الله كان عليكم رقيباً﴾.

ولمّا كانت صلة الرّحم ممّا أمر الله تعالى به فقد كان هذا الأمر من الله تعالى توطئةً لذكر صفتين أخريين فى الاتّجاه ذاته وهما خشية أولى الألباب ربّهم جلّ وعلا وخوفهم سوء الحساب. ومن المعروف أنّ الخشية مزيجٌ من الحبّ والخوف. وممّا عمّق من الحبّ مجىء لفظ الرّبّ فى القول : ﴿ويخشون ربّهم﴾ وممّا عمّق من الخوف التّصريح به فى القول : ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ وممّا يلفت النّظر فى هذه الآية الكريمة الثّانية مجىء لفظ الجلالة الّذى يفيد العموم فى الجزئيّة الكريمة الأولى : ﴿والّذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ ومجىء لفظ الرّبّ الّذى يفيد الخصوص فى الجزئيّة الكريمة الثّانية المتعلّقة بهذه الحياة الأولى : ﴿ويخشون ربّهم﴾ فى حين تتعلّق الجزئيّة الكريمة الأخيرة بالحياة الآخرة : ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ وكأنّ ثمة جمعاً بين الأولى والآخرة.

وبشأن صفات أولى الألباب فى الآية الأخيرة نستطيع أن نذهب إلى أنّها الصّفات المسعفة فى مجموعها أولى الألباب على تحقيق الصّفات السّابقة وبخاصّةٍ الصّبر وإقام الصّلاة والإنفاق ممّا رزق الله تعالى سرّاً وعلانية. ومن أهمّ ما يلاحظ بشأن هذه الوسائل الثّلاث أنّها وحدها جاءت فى صيغة الزّمن الماضى ثمّ عاد السّياق مرّةً أخرى إلى

---

(١) سورة النساء ١ .

استعمال الزّمن المضارع. قال تعالى: ﴿والّذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم وأقاموا الصّلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً وعلانيةً﴾.

والمعروف أنّ الصّبر العمود الفِقَريّ لكلّ الطّاعات وأنّه ثلاثة أنواع. صبرٌ على البلاء وعن المعصية وعلى الطّاعة. وإنّ أولى الألباب يصبرون ابتغاء وجه ربّهم جلّ وعلا.

والمعروف أنّ الصّبر يتجلّى في أبهى صوره في أثناء إقام الصّلوات على الوجه المطلوب لأنّ الصّلوات المفروضة خمسٌ في اليوم والليلة عدا النّوافل. ومن هنا كان أولو الألباب مقيمين الصّلاة على وجهها فرضاً ونفلاً. والمعروف كذلك أنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وأنّها تتّجه مباشرةً إلى الله تعالى.

ولمّا كانت الزّكاة والصّدقة عبادةً يتّجه بهما العبد إلى الله تعالى مروراً بأخيه الإنسان كان ذكر الإنفاق ممّا رزق الله تعالى سرّاً وعلانيةً في الآية الكريمة عقب ذكر إقام الصّلاة واحداً من المواضع الّتي تزيد عن الثّمانين في القرآن الكريم الّتي تمّ فيها الجمع بين الصّلاة والزّكاة للعلاقة الوثيقة بينهما بسبب حاجتهما الكبيرة إلى الصّبر، وتطهيرهما للنّفس، وقصد العبد بهما رضا الله تعالى بطريقٍ مباشرٍ في حقّ الصّلاة وبطريقٍ غير مباشرٍ في حقّ الزّكاة والصّدقة. والإنفاق يشمل الزّكاة والصّدقة.

ولمّا عادت الآية الكريمة إلى ذكر الصّفة الأخيرة وهي أقرب إلى كونها سلوكاً وأخلاقاً من كونها وسيلةً وسبباً عادت الآية الكريمة إلى استعمال صيغة الزّمن المضارع الّتي جاءت مع الصّفات السّابقة المتعلّقة بالسّلوك والأخلاق. وهذه الصّفة الأخيرة هي دفع أولى الألباب السّيّئة بالحسنة، والشّرّ بالخير. وقد جاء في الثناء على من تحلّى بهذه الصّفة قول الحقّ جلّ وعلا في سورة فصلت[1]: ﴿ولا تستوى الحسنة ولا السّيئة. ادفع بالّتي هي أحسن فإذا الّذى بينك وبينه عداوةٌ كأنّه وليٌّ حميم. وما يلقّاها إلّا الّذى صبروا وما يلقّاها إلّا ذو حظٍّ عظيم﴾.

وتختم الآية الكريمة بذكر ثواب أولى الألباب الّذين اتّصفوا بتلك النّعوت: ﴿أولئك لهم عقبى الدّار﴾ إنّ لأولى العقول الرّاجحة العاقبة الحسنة لهذه الدّار الأولى. أمّا هذه العاقبة الحسنة فإنّها الجنة الّتي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) الآيتان ٣٤ و ٣٥.

وإنّما وصفنا عقبى الدّار أو العاقبة بأنّها حسنة لأنّ الجنّة هي حسنة الآخرة ولأنّ الآيةالكريمة الخامسة والعشرين فى وصف عقاب الّذين ينقضون العهد والميثاق نصّت على سوء الدّار دليلاً على النّار والعياذ بالله. وقد دلّ المذكور بشأن العقاب على المحذوف بشأن الثّواب. والله تعالى أعلم.

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

جنّات عدن : جنّات إقامة[1].

إنّ العاقبة المحمودة لأولى الألباب جنّات إقامةٍ وخلود يدخلونها يوم القيامة هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم وإن لم يكونوا فى مستوى صلاح أولى الألباب فإنّ ربّ العزّة يتفضّل برفع منزلتهم إلى مستوى أولى الألباب دون أن ينقص من ثواب أولى الألباب شيء. جاء فى هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الطّور[2] : ﴿والّذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذرّيّتهم وما ألتناهم من عملهم-من شيء. كلّ امرىء بما كسب رهين﴾[3].

ومن تمام الحفاوة بأولى الألباب فى الجنّة أنّ الملائكة الأطهار يدخلون عليهم من كلّ بابٍ قائلين لهم : ﴿سلامٌ عليكم﴾ وأمنٌ وطمأنينة بسبب صبركم فى الحياة الدّنيا فنعم عاقبة الدّار الأولى الجنّة الّتى تتقلّبون الآن فى نعيمها.

ومن البيّن أنّ الملائكة تختار صفة الصّبر من بين نعوت أولى الألباب لأنّه شركةٌ بين كلّ الصّفات وعمادها.

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/٩٥ .

(٢) الآية ٢١ .

(٣) ألته حقّه يألِته نَقَصه . القاموس .

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

فى مقابل العدد الكبير من النّعوت الّتى يتحلّى بها أولو الألباب تذكر هذه الآية الكريمة ثلاثاً من الصّفات السّيّئة للّذين لم يستجيبوا لربّهم جلّ وعلا. إنّهم بشأن حقّ الله تعالى عليهم بإفراده جلّ وعلا بالعبادة ينقضون عهد الله تعالى من بعد ميثاقه وتأكيده وذلك بالإشراك مع الله تعالى سواه. وحينما يكون لدى القوم الجراءة على عدم الوفاء لله تعالى بالعهد الّذى قطعوه على أنفسهم وهم فى عالم الذّرّ والّذى أكده المرسلون والنّبيّون ونعم الله تعالى عليهم وفى مقدّمتها العقل يكرنون أكثر جراءة على عدم الوفاء لعباد الله تعالى بالعهود والمواثيق.

وإنّ غير أولى الألباب بشأن الأهل والأرحام ومن فى حكمهم يقطعون ما أمر الله تعالى به أن يوصل. إنّهم بتلك القطيعة يخالفون أوامر الله تعالى وأوامر حبيبه المصطفى ﷺ.

وإنّهم بشأن عباد الله تعالى من غير الأهل والأقارب والأرحام يفسدون فى الأرض ولا يصلحون.

ومن البيّن مجى صيغة الزّمن المضارع الّذى يفيد التّجدد والاستمرار بشأن الصّفات الثّلاث السّيّئة.

وإذا كان ثواب أولى الألباب حسن عقبى الدّار وعاقبة الحياة الدّنيا وهي الجنّة فإنّ عقاب غير أولى الألباب سوء العاقبة وهي النّار الّتى وقودها النّاس الكافرون، والحجارة الّتى يشركونها مع الله تعالى فى العبادة.

((الّذين كفروا يفرحون فرح بطر والذين آمنوا تطمئنّ قلوبهم بذكر الله تعالى))
الآيـات (٢٦ ـ ٢٩)

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

ويَقْدر : يضيّق[1].

إلّا متاع[2] : المتاع انتفاعٌ ممتدّ الوقت. ويقال لما يُنْتَفَعُ به فى البيت متاع[2] عن مجاهد ﴿وما الحياة الدّنيا فى الآخرة إلّا متاع﴾ قال : قليلٌ ذاهب[3].

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويوسّع، ويَقْدِرُه لمن يشاء ويضيّق. فعلى كلّ إنسانٍ أن يقنع بما رزقه الله تعالى وأن يتّقي الله تعالى ويجمل فى الطّلب فما كان رزقاً له سوف يأتيه، وما كان ليس مقسوماً له لن يأتى به الحرص عليه والاجتهاد فى طلبه. وحينما يكون ربّ العزّة هو وحده الرّزّاق فذلك معناه أنّه هو وحده المستحقّ للعبادة.

وبشأن الحياة الدّنيا حَرَص كفّار مكّة ومن شاكلهم عليها وعلى نعيمها وفرحوا بها حينما أقبلت عليهم فرح أشرٍ وبطر وانغمسوا فى نعيمها ومتعها وكأنّها غاية المنى ومنتهى الطّلب، وكأنّ نعيمها خالد. والآية الكريمة تقرّر أنّ الحياة الدّنيا ونعيمها بالقياس إلى الآخرة ونعيمها ليست إلّا المتاع. ولمّا كانت الحياة الدّنيا زائلةً فكيف بنعيمها! ومن هنا كان من متعلّقات المتاع النّعيم الزّائل القصير الأجل الرّخيص الثّمن. والدّليل على ذلك أنّ آية المثلين المائيّ والناريّ عبّرت عمّا ينتفع به فى البيت والمصنوع من ردىء المعدن كالحديد والنّحاس بأنّه متاع.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾

كفّار مكّة الّذى جاء على لسانهم فى الآية الكريمة السّابقة القول : ﴿لولا أنزل عليه آيةٌ من ربّه﴾ يكرّرون هنا القول ذاته دليلاً على العناد والإصرار على الإعراض عن

---

(١) أنظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «قدر» ٣٩٦.

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «متع» ٤٦١.

(٣) تفسير الطّبري ١٣/٩٧.

القرآن الكريم وطلب آياتٍ أخرى ماديّة يقلّ ما يصحّ تحقّقه منها عن القرآن الكريم في مجال الإقناع والبلاغ. ولمّا كان ربّ العزّة يزيد من أصرّ على العناد والانصراف ضلالاً وعمىً على ضلاله وعماه، وفي المقابل يزيد من اهتدى هدىً ويؤتيه تقواه فضلاً منه جلّ وعلا ونعمة فإنّ الآية الكريمة في ردّها على الّذي كفروا تقرّر نصيبهم من زيادة الضّلال والعمى، وفي المقابل هي تقرّر زيادة الّذين أنابوا إلى ربّهم جلّ وعلا هدىً وتقوى. إنّهم الّذين رجعوا إليه جلّ وعلا مرّةً بعد أخرى بالتّوبة وإخلاص العمل[1].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

تبيّن الآيةُ الكريمة صفة الّذين أنابوا إليه جلّ وعلا فهداهم سبله عزّ وجلّ. إنّهم في رجوعهم إلى الله تعالى المرّة بعد الأخرى آمنوا وعملوا الصّالحات واطمأنّت قلوبهم بذكر الله تعالى وانشرحت صدورهم وهدأت نفوسهم وسكنت جوارحهم. لقد عُبّر عن هذه النّعوت باطمئنان القلوب. وعيّن السّبب في ذلك الاطمئنان وهو ذكر الله تعالى. وإنّ ذكر الله تعالى يكون باللّسان وبالقلب وبترجمة تلك المعاني السّامية إلى عملٍ بالجوارح والأركان. وإنّ من ألطف ما يجمل الإشارة إليه هو أنّ الشّارع الحكيم لم يضع نهايةً للذّكر لسهولة تحقّقه في كلّ الأوقات والأحوال. وممّا جاء في ذلك قول الحقّ جلّ وعلا[2]: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبّحوه بكرةً وأصيلا﴾.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

طوبى لهم: اسمٌ من أسماء الجنّة[3].

إذا كانت الآية الكريمة السّابقة قد بيّنت بعض صفات الّذين هداهم الله تعالى وبعض مظاهر الحياة الطّيّبة في الأولى وفي مقدّمة ذلك اطمئنان القلوب بذكر الله تعالى فإنّ هذه الآية الكريمة التّالية تواصل الحديث في الصّفات وفي بعض مظاهر الحياة الطّيّبة، ولكن في الأخرى. إنّ الّذين هداهم الله تعالى جمعوا بين الإيمان اعتقاداً وقولاً

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «نوب» ٥٠٨.

(٢) سورة الأحزاب ٤١ و٤٢.

(٣) تفسير الطبري ٩٨/١٣.

وبين ترجمة ذلك الإيمان إلى عمل الصّالحات وفعل الطّيّبات. وبشأن الحياة الطّيّبة في الأخرى هم جزاؤهم الجّنة وحسن المآب والمرجع إلى الله تعالى الّذي لا يظلم مثقال ذرّة ويضاعف الحسنات. وإذا كانت هذه الآية الكريمة من سورة النحل[1] : ﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾. قد أشارت إلى الحياة الطّيّبة في الأولى فإنّ إشارة آية سورة الرّعد إلى الجّنة بلفظ : ﴿طوبى﴾ ينبّه إلى الحياة الطّيّبة في الآخرة وإلى كلّ مستطابٍ في الجّنة من بقاءٍ بلا فناء، وعزٍّ بلا زوال، وغنىً بلا فقر[2].

---

(١) الآيـة ٩٧ .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «طيب ٣٠٩ .

(تثبيت فؤاد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين)
الآيـات (٣٠ ـ ٣٢)

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ
لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ
قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

قد خلت من قبلها أمم : قد مضت[1].

وإليه متاب : وإليه مرجعي وأوبتي. وهو مصدر من قول القائل : تبت متاباً وتوبة[2] وتاب إلى الله : تذكّر ما يقتضي الإنابة. وتاب الله عليه، أي قَبِل توبته منه[3].

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة كما أرسل رسلاً سابقين لأممهم أرسلناك يا محمّد في أمّةٍ قد خلت من قبلها أمم ومضت قبلها جماعات منها من آمن فسعد ومنها من كفر فشقي. وإنّما أرسلناك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لتتلو على قومك ابتداءً القرآن الكريم الّذي أوحيناه إليك من لدنّا. والعجيب في أمر كفّار مكّة أنّهم يكفرون بالرّحمن ويزعمون أنّهم لا يعرفون ما الرّحمن وهم أرباب البيان فادّعاؤهم الجهل بمعنى الرّحمن امتدادٌ لادّعائهم الجهل بالقرآن. جاء في ادّعائهم الجهل بمعنى الرّحمن قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الفرقان[4]. ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرّحمن قالوا وما الرّحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾ وتجاه زعمهم أنّ المصطفى ﷺ الّذي يدعوهم إلى التّوحيد يدعو هو نفسه الله والرّحمن فهما إلهان اثنان جاء قول الحقّ جلّ علا خطاباً للمصطفى ﷺ في سورة الإسراء[5] : ﴿قل ادعو الله أو ادعوا الرّحمن أيّاً مّا تدعو فله الأسماء الحُسْنىٰ. ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ كما جاء في الآية الكريمة الّتي نحن بصددها من سورة الرّعد الأمر للمصطفى ﷺ بأن يقول لهم إنّ الرّحمن الّذي تكفرون به هو ربّي لا إله إلاّ هو عليه توكّلت وحده لا شريك له وإليه توبتي ورجوعي ومآبي.

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٠١ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خلا» ١٥٨.

(٢) تفسير الطّبري ١٣/١٠١.

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «توب» ٧٦.

(٤) الآية ٦٠.

(٥) الآية ١١٠.

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ
بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ
وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

أفلم ييأس الّذين آمنوا : أفلم يعلم ويتبيّن الّذين آمنوا[1] ولم يرد أنّ اليأس موضوعٌ فى كلامهم للعلم، وإنّما قصد أنّ يأس الّذين آمنوا من ذلك يقتضى أنّ يحصل بعد العلم بانتفاء ذلك. فإذاً ثبوت يأسهم يقتضي ثبوت حصول علمهم[2].

قارعةٌ : ما يقرعهم من البلاء والعذاب والنّقم[3].

أصرّ كفّار مكّة على تكذيب المصطفى ﷺ والكفر بالرّحمن والإعراض عن القرآن وطلب آياتٍ محسوسةٍ أخر ومنها ما أشار إليه قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الفرقان[4] : ﴿وقالوا مالِ هذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي فى الأسواق لولا أُنْزل إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً. أو يُلْقَى أليه كنزٌ أو تكونُ له جنّةٌ يأكل منها. وقال الظّالمون إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحورا﴾ ومن هذه المعجزات ما أشارت إليه الآيات الكريمات فى سورة الإسراء من التّسعين إلى الثّالثة والتّسعين.

وكأنّ كفّار مكّة كانوا قد طلبوا من المصطفى ﷺ أن يجعل القرآن الكريم تُسَيَّر به الجبال كجبل الصّفا فى مكّة وتقطّع به الأرض وتشقّق ويكلّم به الموتى أصحاب القبور. ولمّا كانت العادة لم تجر بأن تكون هذه هي وظائف أيّ كتاب سماويّ سابق، لأنّ وظيفة أيّ كتاب سماويّ الهداية إلى الطّريقة الّتى هي أقوم فإنّ الآية الكريمة تقرّر لو أنّ كتاباً

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٠٣ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «يأس» ٥٥٢ .

(٣) تفسير الطّبري ١٣/١٠٤ .

(٤) الآية ٧ و ٨ .

سماويّاً يقوم بهذه الأعمال لكان ذلك الكتاب هو القرآن الكريم لأنّه أشرف الكتب السّماويّة. ولمّا كانت تلك الأعمال أو الخوارق ليست من عمل جنس الكتاب فإنّ ذلك لن يتحقّق بالقرآن الكريم كما لم يتحقّق بسواه. ومن البيّن إطلاق لفظ القرآن الكريم على كلّ كتاب سماويّ، وفى ذلك إيماءٌ إلى أنّ القرآن الكريم مهيمنٌ على كلّ كتاب سماويّ سابقٍ وناسخ له. ومن البيّن حذف جواب لو الّتى تفيد الامتناع للامتناع أيّ امتناع الجواب لامتناع الشّرط، والتقدير : لكان هذا القرآن[1] وحذف جواب لو لدلالة المعنى عليه جائز[2].

وتضرب الآية الكريمة عن عبث كفّار مكّة وتقرّر أنّ الأمر كلّه لله تعالى وحده لا شريك له. إنّه جلّ وعلا هو الّذى يصطفى رسله بالمعجزة الّتى يؤمن بمثلها البشر، وليس من عمل الكتاب السّماويّ تلك الخوارق الّتى طالب كفّار مكّة بتحقيقها.

وفى المقابل على المؤمنين أن يعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لهدى النّاس جميعاً وفيهم كفّار مكّة، وبشأن الّذين حقّت عليهم الضّلالة على المؤمنين أن ييأسوا من هدايتهم فقد زادهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم وعمىً إلى عماهم.

وإنّ على كفّار مكّة أنّ يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً وأن يتفكّروا فى صاحبهم محمّد ﷺ وفى أنفسهم. إنّهم لا يخفى عليهم ما أصابهم وسوف يصيبهم من قوارع البلاء والعذاب والنّقم وما حلّ أو سوف يحلّ قريباً منهم ومن ديارهم من اتّساع دائرة الإسلام وسلطة المسلمين حتّى يأتي وعد الله تعالى بالنّصر والفتح المبين. إنّ الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد بإنجاز وعده ونصر عبده والمؤمنين. ويصحّ أنّ تكون هذه الآية الكريمة مدنيّةً فى أثناء السّورة الكريمة الّتى نعتقد ـ والله تعالى أعلم ـ أنّها مكّيّةٌ فى مجموعها. ويصحّ أن يلحق بهذه الآية الكريمة المدنيّة الآية الكريمة الحادية والأربعون الّتى تعمّق هذه المعانى فى الآية الكريمة الّتى بصددها.

---

(١) تفسير القرطبي ٣٥٤٨ .

(٢) البحر المحيط ٣٩١/٥ .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

من أسلحة كفّار مكّة، شأنهم فى ذلك شأن سائر الكافرين، الاستهزاء بالمصطفى ﷺ والمؤمنين. وبشأن المصطفى ﷺ قد كفاه الله تعالى المستهزئين على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الخامسة والتّسعون من سورة الحِجْر. ولمّا كانت رحمة الله تعالى تسبق عذابه وغضبه فإنّ ربّ العزّة يمهل المستهزئين الكافرين كي يتوبوا إلى الله تعالى وإلاّ كان أخذ الله تعالى لهم أليماً وعذابه شديداً. إنّ على كفّار مكّة أن يستفيدوا من فترة الإمهال هذه وإلاّ نالوا العقاب الّذى ناله المستهزئون السّابقون.